العز بن عبد السلام

(٥٧٧-٦٦٠هـ=١١٨١-١٢٦٢م)

بائع الأمراء

obeikandl.com

العالم التقي الورع، الذي تربى على مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، لا يرضى عن نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق بديلا، لا تخيفه قوة السلطان، ولا تستميله الهدايا أو العطايا والصلات، الناس عنده أمام الشريعة سواء حكام أم محكومين. مصلحة الأمة وفق أحكام الدين هي ما يسعى إليه ويعمل من أجله. رضاء الله وتطبيق الشرع مبتغاه. لا يافق حاكم أو صاحب سلطان.

بأمثال هؤلاء العلماء صلُح أمر الناس وشاع العدل بينهم، واحترمت الدول والشعوب أمة الإسلام. ومن هؤلاء العلماء شيخ قال عنه «الظاهر بيبرس» حاكم مصر، بعد أن استقر جثمان الشيخ تحت سفح المقطم، وعاد السلطان «الظاهر بيبرس» إلى قصر ملكه وتنفس الصعداء قال: الآن استقر أمري في الملك، لأن هذا الشيخ لو قال للناس: اخرجوا عليه لا تتزعوا الملك مني. إنه «سلطان العلماء العز ابن عبدالسلام».

حياة هذا الشيخ كلها مواقف مشرفة، ونموذج لما يجب أن يكون عليه عالم الدين المسلم. سواء وهو يعلم في حلقة الدرس، أو وهو يتصدى للإفتاء، أو الخطابة، أو عندما يقضي بين الناس، وُلِدَ في دمشق عام ٥٧٧هـ. الموافق ١١٨١م وتوفي بالقاهرة عام ٦٦٠هـ. الموافق ١٢٦٢م. ودُفن بسفح جبل المقطم.

أطلق عليه أبوه اسم «العز عز الدين عبدالعزيز»، ولكنه عندما كبر اشتهر باسم عزالدين وباسم العز.

كان أبوه عبدالسلام فقيرا، وحين شب الطفل صحب والده ليساعده في بعض الأعمال الشاقة كإصلاح الطرق وحمل الأمتعة وتنظيف ما أمام محلات التجار، وإذا حان وقت الصلاة صحب والده إلى الجامع الأموي.

من الصغر:

عندما توفى والده التحق بالجامع الأموي يساعد الكبار في أعمال النظافة، وحراسة نعال المصلين وأهل الحلقات، وكان يقضي الليل نائما على الرخام في زاوية

بأحد دهاليز الجامع، وكان يتناهى إلى سمعه وهو على باب المسجد يحرس النعال، كلام يثير خياله، ويلهب أشواقه إلى دنيا أخرى لا يجوع فيها ولا يعرى. وتسلل إلى إحدى الحلقات ذات يوم، ورآه شيخ الحلقة فنهره، وسأله كيف يسمح لنفسه أن يجلس بثوب ممزق في مجلس علم ينبغي على الطالب فيه أن يأخذ زينته؟!

جرى الصبى إلى باب المسجد، وتكور على نفسه يبكي، رآه الشيخ «الفخر بن عساكر» صاحب حلقة الفقه الشافعي، وسأله عما يبكيه، ووعده أن يتعهده ويعلمه. وفي صباح اليوم التالي ألحقه بالكتاب الملحق بالمسجد، وأوصى بأن يتعلم القراءة والكتابة والخط وأن يحفظ القرآن على نفقة «ابن عساكر».

شغف عظيم بالعلم:

أقبل «العز» على حفظ القرآن في شغف عظيم، وأتقن القراءة والكتابة والخط الحسن، وعوض ما فاته من سنوات الدرس. ومرت أعوام، واطمأن الشيخ «فخرالدين» إلى أن الصبي قد أتقن حفظ القرآن وجوده، وأنه يحذق القراءة والكتابة بخط جميل، فقرر أن يضمه إلى الطلاب الذين يحضرون حلقته.

لزم «عزالدين» شيخه «ابن عساكر»، وتعلم عليه الفقه الشافعي، وكان الشيخ زاهدا ورعا واسع المعرفة كثير الصدقات، خطيبا لاذعا، وهو في الوقت نفسه شديد الحياء، وكان مرحا متألق الظرف، فتأثر به تلميذه «عزالدين» ونقل عنه كثيرا من خصاله وسجاياه.

ولم يكد ينتهي الشاب من الدراسة على شيخه «الفخر بن عساكر» وغيره من الشيوخ في الجامع الأموي حتى أجازوه للتدريس، وعُين مدرسا بدمشق، يقرئ صغار الطلاب القرآن، ويعلمهم القراءة والكتابة، ثم نُقل إلى مدرسة أعلى يعلم الطلاب الفقه وأصوله على المذهب الشافعي. وكان يتردد على مكتبة الجامع الأموي، يقرأ فيها كل ما يقع عليه من معارف، واستوعب كل ما تركه السلف في علم الكلام.

دقة وتفكير:

جذب «عزالدين» إليه العديد من الطلاب، أحبوا دروسه التي كان يرصعها بما حفظ من طرائف الحكمة وروائع الشعر، مما كان ييسر على الطلاب صعوبة الفقه. وقصده الناس يستفتونه، ولم يعد يتقيد بالمذهب الشافعي، بل كان يبحث في كل المذاهب عن إجابات لما يرد إليه من أسئلة، فإن لم يجد حاول أن يجتهد برأيه. تميز «العز» بالدقة في فتياه، يفكر طويلا قبل الإجابة، ويظل يفكر بعدها وينقب حتى يطمئن أنه على الصواب. أصدر فتيا ذات مرة، ثم طفق يفكر بعدها فيما قال، وعاد إلى كتب السلف عسى أن يجد فيها ما يسانده، فاكتشف أنه أخطأ، ولم يكن يعرف صاحب المسألة الذي استفتاه، فأطلق عددا من تلاميذه في الأسواق والطرقات والمساجد ينادون في الناس: من صدرت له فتيا بالأمس من «العز عزالدين بن عبدالسلام» فلا يعمل بها فهي خطأ. فهل يفعل ذلك أحد من فقهاء اليوم؟.

ولم يهتم «عزالدين» بالتدريس والفتيا فقط، ولكنه كان يتحرك في الأسواق يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر في رحمة وحكمة وموعظة حسنة. ويشدد النكير على الظالمين من التجار الذين يبخسون الناس أشياءهم، وعلى جباة الضرائب، والمرتشين الجائرين ممن يلون أمرا من أمور المسلمين.

أحب الناس «ابن عبدالسلام»: المظلومون والفقراء خاصة، وطلاب العلم الذين يجاهدون من أجل مستوى أفضل. وخافه الجائرون من الحكام، أما العادلون منهم فقد حاولوا أن يقربوه، ولكنه كان بطبعه لا يحب الاقتراب من السلطان. وضاق به بعض الفقهاء المقلدون ممن ينافقون الحكام، فقد كان لا يتورع عن مهاجمة ونقد الجامدين والمرتشين والمرتزقة الفقهاء بألسنة حداد، ويطالب المسلمين ألا يتبعوهم حتى لا يفسدوا عليهم دينهم.

السكوت عن المنكر منكر:

وفي أحد الدروس وجه أحد الطلاب إلى الشيخ «عزالدين» سؤالا عن حكم

الدين في العلماء الذين يسكتون عن الظلم، وهم بعد ذلك يتصدرون بعض الحلقات في الجامع الأموي يعلمون ويفتون؟!

فأفتى الشيخ «عزالدين» بأن السكوت عن المنكر منكر، وعلماء المسلمين هم أولى الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن تخلوا فما أطاعوا الله والرسول، وإن كان سكوتهم طمعا في الأموال والهدايا والمناصب أو حرصا فإثمهم مضاعف. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]. وهؤلاء هم العلماء، فإن لم يفعلوا فهم العصاة والعياذ بالله. وهؤلاء لا طاعة لهم.

هذه الفتوى أغضبت وأهاجت هؤلاء النفر من العلماء ووجدوا فيها تحريضا للطلاب وللعامة عليهم وعلى السلطان نفسه، فدسوا له عند السلطان وطالبوا بمنع «عزالدين» عن الفتيا والتدريس والمشي في الأسواق. ولكن السلطان بتوجيه من أخيه «الملك الكامل» حاكم مصر عينه شيخ حلقة في الجامع الأموي، وهو أكبر منصب علمي في دمشق.

ومضي الشيخ في طريقه، يقرأ ويدرس ويفتي، وقد اطمأنت به الحياة فالراتب الذي يأخذه من المسجد الأموي راتب كبير يكفيه لحياة موفورة.

ولكنه ظل كما هو العالم التقي الورع، طالبته زوجته أن يغير سكنه الضيق بعد أن كثر الأولاد، فوعدها خيرا، ولكنه لم يغيره. فقد كان ينفق عن سعة على أهل بيته، ويحسن إكرام ضيوفه، ويتصدق بما بقي، ولا يدخر شيئا على الإطلاق.

وعندما أعطته زوجته مصاغها ليبيعه ويشتري لهم بيتا واسعا، باعه وتصدق بثمنه. فلما عاد إلى زوجته استقبلته فرحة:

- هل اشتريت لنا بستانا؟

- نعم بستانا في الجنة. إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمن المصاغ.

- جزاك الله خيرا.

منارات العدل:

ومرة أخرى يحاول أهل النفاق من العلماء أن يوقعوا بين الملك الأشرف وبين الشيخ «العز بن عبدالسلام..»، وعندما تأزم الموقف بين العز وبين حاكم دمشق تدخل أخوه الكامل مرة أخرى وأشار عليه أن يعين عزالدين قاضيا للقضاة ليصلح له أمور الرعية، وأمر أخاه ألا يثق بأحد من العلماء إلا هؤلاء الذين يأخذون الكتاب بقوة، الأشداء الأتقياء الورعين الذين لا يخافون في الله لومة لائم، لأن هؤلاء هم أعمدة الأمة ومنارات العدل، وهم أحرى بأن يجعلوا السلطان قويا وفاضلا ومحبوبا عند الرعية، وهم على أية حال خير من الفقهاء والعلماء الضعاف المستخزين المنافقين،طلاب المنافع الذين يذهبون بجلال الملك ويزدرون بهيبة الدين.

وكان على الشيخ أن يضع على رأسه أكبر عمامة في الدولة، عمامة قاضي القضاة، صاحب أكبر منصب ونفوذ، الرجل الذي يلزم بأحكامه كل أولياء الأمر حتى السلطان نفسه. ولكنه وضع على رأسه طاقية من لباد مصر، وهي غطاء الرأس الذي لا يستعمله إلا فقراء الناس في مصر والشام، وكان من قبل عندما عُين خطيبا للجامع الأموي، قد طرح الرداء الأسود الذي كان يرتديه خطباء الجامع الأموي.

وظل الشيخ «عزالدين» يعمل على إماتة البدع، وإحياء السنن في كل ما يصدر من أحكام، وما يلقي من دروس وخطب، وما ينشئ من فتاوى وكان يقول: طوبى لمن ولي أمرا من أمور المسلمين، فأعان على إماتة البدع وإحياء السنن.

خيانة السلطان:

وعندما تحالف «الصالح إسماعيل» سلطان دمشق مع الصليبيين، وتنازل لهم عن صيدا وقلعة الشقيف وبعض مدن فلسطين واقتسم معهم مدنا أخرى، أعلن الشيخ «عزالدين» في خطبة الجمعة خيانة سلطان دمشق ومن والاه من أمراء الشام. وأفتى أن بيع السلاح للفرنجة حرام، وكل بيع لهم حرام. فمن ارتكب من ذلك شيئا فقد

خان الله والرسول ولا ذمة ولا عهد له، ودمه مهدر وماله مباح. وأصدر السلطان أمرا بسجن الشيخ عزالدين والشيخ ابن الحاجب الذي أيد فتواه. لكنه اضطر إلى الإفراج عنهما خشية ثورة الناس.

ورأى الشيخ ابن عبدالسلام أن يهاجر إلى مصر عملا: بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء:٩٧].

وكان يوم وصوله إلى القاهرة كأيام الأعياد، فقد احتشد الناس في أبهى ملابسهم لاستقباله، وأمر السلطان أمراءه وقادة الجيش أن يرتدوا حلل العيد، وخرج في أبهته على رأسهم يستقبلون الشيخ. وقد أعدوا له الخيل المطهمة ليمتطيها هو وأهله وأبناؤه. وسكن دار فسيحة وسط حديقة غناء، اشتراها أهل مصر عرفانا بمكانة.. «عز الدين بن عبدالسلام».

وأصدر السلطان الملك «الصالح نجم الدين أيوب» أمره بتعيين الشيخ إماما وخطيبا لجامع عمرو، الذي أصبح منذ عهد صلاح الدين الأيوبي بديلا للأزهر وتنازل الشيخ المنذري مفتي مصر عن الإفتاء للشيخ عزالدين قائلا: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عزالدين وأما بعد حضوره فالفقه متعين فيه ولا يفتي أحد وهو بيننا. ثم عينه الملك الصالح قاضيا لقضاة مصر.

وبدأ القاضي العادل بتطبيق أحكام الشريعة على أمراء المماليك، فقد رأى أنهم ليسوا من أهل مصر، وليسوا أحرارا على الإطلاق، بل هم مجلوبون، اشتراهم السلطان من بيت المال وهم صغار فتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين، وفنون الفروسية والحرب والرياضيات، وعندما شبوا عينوا في مناصبهم، فهم أمراء مماليك أرقاء إذن. وليس لهم حقوق الأحرار، ولهذا فليس لهم أن يتزوجوا بحرائر النساء، وليس لهم أن يبيعوا أو يشتروا أو يتصرفوا، إلا كما يتصرف العبيد.

وبهت الملك لمعاملة «العز» للأمراء المماليك معاملة العبيد في أحكامه، وذهب إليه يسأله أن يعدل عما أخذ فيه، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل في القضاء، فليس هذا

للسلطان. فإن شاء أن يتدخل فالشيخ يقيل نفسه. فاحتار السلطان ماذا يفعل؟.

لقد أبطل الشيخ كل أمر أبرمه المماليك من عقود بيع وإجارة، وحتى عقود الزواج، فاضطرب أمر المماليك; فالزوجات يهجرن فراش الزوجية، ويعاملن أزواجهن كالغرباء، والتجار يعودون في الصفقات، والصبية يطاردون الأمراء المماليك يعيرونهم بأنهم عبيد. بعد أن كان الناس يخشون هؤلاء الأمراء الذين أذاقوهم الأهوال. فتعطلت مصالح هؤلاء الأمراء، ومنهم نائب السلطنة.

بيع الأمراء:

غضب الأمراء وهاجوا، ولكن الشيخ لم يتراجع، فلا حل إلا أن نعقد لكم مجلسا وننادي عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين هكذا قال لهم الشيخ، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يتراجع رغم أنه أخبره -على لسان رسوله- أنه لن يسمح ببيع الأمراء، وأن أمر السلطان واجب، وهو فوق قضاء الشيخ عزالدين وليس للشيخ أن يتدخل في أمور الدولة فشؤون الأمراء لا صلة له بها، بل بالسلطان وحده، ورفض الشيخ أن يتدخل السلطان في القضاء. وقام من فوره فجمع أمتعته ووضعها على حمار، ووضع أهله على حمير أخرى، وساق الحمير ماشيا، فقد قرر أن يخرج من مصر، مادام السلطان فيها يعتدي على القضاء.

تجمع الناس حوله وهم يتوسلون باكين ألا يتركهم، فقد عرفوا في قضائه قوة الانتصار للمظلوم، وهيبة العدالة، خلال تلك الأشهر القلائل التي ولي فيها المنصب.

ولكن الشيخ صمم على قراره وسار في طريقه خارج القاهرة والناس من خلفه، يرجون ملحين ساخطين، حتى امتلأت بهم الأرض الفضاء، إذ لم يتخلف عن اللحاق به امرأة ولا صبي ولا رجل ولاسيما العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم. وعلم السلطان بما يجري، وقال له أحد ناصحيه: تدارك ملكك وإلا ذهب بذهاب الشيخ.

فأسرع السلطان خلف الشيخ، وتقدم متلطفا معتذرا إليه، وقال له: لا تفارقنا، عد يا إمام واصنع ما بدا لك. وجمع السلطان كل الأمراء في القلعة بأمر الشيخ، ثم عُرضوا في مزاد ونادى الشيخ عليهم وغالى في ثمنهم. حتى إذا امتنع الحاضرون عن المزايدة في الثمن لارتفاعه الفاحش، تقدم السلطان فدفع ثمنا أزيد من ماله الخاص لا من بيت المال، حتى اشترى جميع الأمراء المماليك وأعتقهم لوجه الله، فأصبحوا أحرارا. وصحح الشيخ عقودهم، بما فيها عقود الزواج. ووزع الشيخ ثمنهم على الفقراء والمحتاجين، وخاصة أهل العلم وطلابه، وأقام به مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة.

مصلحة الأمة:

واستمر الشيخ في القضاء حاسما حازما لا يخشى إلا الله، ولا يأبه إلا بالحق، ولا يراعي إلا مصلحة الأمة، تأتيه الدعوى من أحد الأفراد على أحد خواص السلطان، فيسوي بينهما في المجلس، ويتحرى العدل وحده.

ووجد بعض الأقوياء الظالمين يغتصبون حقوق المستضعفين، فأفتى أن من واجب المستضعفين أن ينتزعوا ما اغتُصبَ منهم، ولا عقاب عليهم، فهذا حقهم الشرعي. فإن هم وجدوا السلطان عاجزا عن رد أموالهم المغتصبة، فعليهم استردادها بأنفسهم، وإلا أثموا شرعا، أثارت هذه الفتيا عددا من الأمراء الذين ألفوا أن يستضعفوا بعض التجار والصناع والحرف ويغتصبون منهم خفية البضائع والأجور.

وغضب السلطانمن الشيخ عندما هدم طبلخانة استادار، الذي يتولي شؤون مساكن السلطان وسائر حوائجه الخاصة، والتي أقامها فوق سطح أحد المساجد، فتنازل العز عن منصب قاضي القضاة، وتفرغ للتأليف والكتابة.

ما حجتك عند الله؟

لكنه لم يغمض عينيه عن أخطاء السلطان، فقد ذهب إلى السلطان في يوم عيد

بالقلعة، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة معقود، وقد خرج السلطان على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه:

«يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك أهب لك ملك مصر، ثم تبيع الخمور؟» فقال السلطان: هل جرى ذلك؟.

قال: نعم الحانة (...) تبيع الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة.

فقال السلطان: يا سيدي هذا أنا ما عملته. هذا من زمان أبي.

فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢].

فأمر السلطان بإغلاق الحانة. وبعد أن انصرف الشيخ سأله أحد تلاميذه عما فعله؟

فقال الشيخ: رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لكيلا تكبر نفسه فتؤذى.

فقال التلميذ: - أما خفته؟. قال الشيخ.. والله يا بني لقد استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان أمامي كالقط.

وعندما اتجه الصليبيون إلى دمياط بقيادة لويس التاسع، هب الشيخ ليدعو كل أفراد الأمة إلى الجهاد. وانتصر المصريون على الصليبيين، ثم روعت الدنيا باستيلاء التتار على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية.

ومن جديد يطلق الشيخ عزالدين صيحته إلى الملوك والأمراء العرب والمسلمين أن يتفقوا، فما استباح التتار أرضهم وأعراضهم في الطرق إلا لأنهم تفرقوا.

لا للضرائب الجديدة:

وكان السلطان «قطز» على عرش مصر، فجمع الأمراء والأعيان والعلماء

ليتشاوروا في أمر التهديد التتري، ورأى «قطز» أن الحرب تقتضي مالا كثيرا وخزانة الدولة خاوية، فلابد من فرض ضرائب جديدة على الرعية لتجهيز جيش قوي يصد زحف التتار. ووافق الأمراء المماليك على فرض ضرائب جديدة، لكن «العز بن عبدالسلام» قال: لا للضرائب الجديدة، فإذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم. وجاز ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والمزركشات، وأن تبيعوا مالكم من الحوائص «أحزمة الخيل» الذهبية والآلات الفضية ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه ويتساوى معهم العامة.. وأما أخذ الأموال من العامة مع إبقاء الأموال والآلات الفاخرة في أيدي الجند، فلا..

واقتنع السلطان بهذا الكلام، فكان الأمر كما قال الشيخ، ولم يقرر السلطان ضرائب جديدة، وبيعت الأشياء الثمينة التي يمتلكها الأمراء والجند المماليك وجَهِّز بثمنها جيشا ضخما قاده قطز وهزم التتار في عين جالوت.

عاش الشيخ قابضا على دينه لا يخاف في الله لومة لائم حتى بلغ الثالثة والثمانين من العمر فوافته المنية في خلافة الظاهر بيبرس، وشيعته مصر كلها برجالها وأطفالها ونسائها. وحمل الأمراء ومنهم السلطان نعش الشيخ (*).

(*) عبد الرحمن الشرقاوي، أئمة الفقه التسعة، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م. ص٣٣٧.